الإمر الواقع

نظره فى حال جمهورية السودان

بقلم ؛ ع.ن.م.ح

نظرة على نظام الحكم بالسودان

جمهورية السودان -كمعظم المنطقة العربية والافريقية- ان تميزت بشيئ فى نظام الحكم فهو مرونته والقابلية العالية لتحوليه وتحويره وتكييفه على اهواء الحاكم .. فهو شيوعى اذا كان الحاكم كذالك ، او اسلامى اذا راى الرئيس ضرورة الامر .. الميوعة الظاهره فى الامر وعدم وجود نظام ثابت يدعم اساس الدولة ودستورها يتناقض بشكل كبير مع اسم الدولة .. ولفظ الجمهورية الملصق به .. حيث ان الامر -وان تارجح بين ايدى القوى السياسية بالسودان- لم يرجع يوما للشعب .. ولم يكن لهم يوما دخل بتسيير امور البلاد او حتى امتلاك اقل تاثير على سياساتها الداخلية والخارجية ..

معظم فترة البلاد مابعد الاستقلال توفر للناظر اليها عامل مشترك واحد يميز تجربتها السياسية .. او يفسر عدم وجودها بالشكل الحقيقى المطلوب كما يتوفر بالدول التى تدعى الديموقراطية وكما تقتضى متطلبات حكم الشعب او بما يوفر اقل اساس لحكم الدول الحديثة. الانظمةً العسكرية المستبدة التى استغلت النزعة القومية التى توفرت بعد فترات الاستعمار لترسيخ صورة القائد العسكرى كقائد للامة ومخلصها من مخططات القوى الاستعمارية العالمية وترسيخا لرفض الافكار التى حاول مثقفى تلك الدول الترويج لها بحجة تشابهها ومايطبق فى الدول الغربية -الاستعمارية- مما ادى الى تفضيل القوة العسكرية التى يمثلها قادة المؤسسات العسكرية على وعود التنمية وتكريس حكم الشعب والديموقراطية التى نادى بها النخبة من تلك الدول..

تمسك المؤسسات العسكرية بزمام الحكم ف السودان بعد ثورة الانقاذ حول البلاد الى ثكنة عسكرية ضخمة عطلت -بشكل ضمنى- عمل القضاء واعلنت الاحكام العرفية و حولت الدستور ومواده الى مجرد مسودة دائمة يتم تكييفها الى اهواء السلطة وتابعيها .. احتضنت البلاد كل من رفضه المجتمع الدولى لتورطه بقضايا الارهاب مفضلين بذالك الشخصيات على الدول، حيث ان كل شخص مطلوب تحتضنه الدولة يتسبب فى خسارة العلاقات-او امكانية حدوثها- بين السودان والدولة المطالبة بتسليم ذالك الشخص .. المعادلة التى اختارتها الحكومة يترفع بنفسه عن اختيارها اجهل من تمشى ظهر البسيطة، فالدول وان بعدت دوبلوماسيا وان انحسرت علاقاتنا معها بالوقت الحالى لا يمكن باى حال تفضيل اشخاص عليها .. والتضحية بامكانية اقامة علاقات مثمرة تصب فى مصلحة البلد فى مجالات عدة.. الامر الذى اضحت البلاد بامس الحاجة اليه بعد حين ، اذ ضيقت العقوبات الامريكية والعزلة عن المجتمع الدولى افاق الحلول الاقتصادية وتسببت بوصول البلاد الى الحالة الاقتصادية الراهنة ..

بعدها ، اصاب القادة الياس .. ودخلت البلاد مرحلة البحث عن شريك يضئ لها- وان لن يخرجها من- نفقها المظلم وجناح تستظل به بعيدا عن مظلة المجتمع الدولى .. كل من الصين وايران واخيرا المملكة العربية السعودية شكلوا برهانا على تخبط المبادى الدوبلوماسية -ان حضرت- وشاهدا هلى تحول منهجها من تكوين علاقات وتحالفات ثابتة وقوية الى تكوين تحالفات سريعة ومتغيرة لتلبية حاجات الوقت الراهن .. فالتصقت بالبلاد تهمة التسول وبجيشها شبهة الارتزاق !

رغم تحول المنهج المذكور اعلاه فى شان علاقات البلاد بغيرها وسياساتها الخارجية.. الا ان امر الداخل كان ولازال مبنيا على ان الاصل فى الناس هو الصمت .. وان حريات التعبير والصحافة وغيرها -رغم تاكيد الحكومة عليها- يبقى مقموعة ماخالفت اهواء الحاكم.. وان لاصوت يسمع الا ان كان للتطبيل او التظاهر لصالحه ليتحول صوت الشعب الى اداة يطوعها لارسال الرسائل المختلفة للمحكمة الدولية والولايات المتحدة ومجلس الامن.. ويبقى مصير كل من احتج او تكلم الاختفاء القسرى .. فثبت عند الناس الابتعاد عن السياسة وطرقها من باب عدم القاء النفس الى التهلكة حتى افتى بعضهم بحرمة الحديث فيها !

لم يكتفى النظام بذالك ، المضحك انهم -رغم حكمهم للبلاد لثلاث عقود بلا شريك او منافس وفى ظل بيئة اقرب للملكية منها للجمهورية واقصائهم لكل رأى مخالف لاهوائهم وتحوليلهم البرلمان الى منتدى شعرى بلا شعر- عندما احسوا بالفشل لم يحملوا انفسهم يوما اوزاره بل عادوا واشركوا معهم ماسموه بالمعارضة فى مسرحية الحوار الوطنى تكرما عليهم وتحميلا لهم لاثقال القرارات القادمة من زيادة الاسعار وابتكار وصفات الفشل ! حتى انهم حملوا الشعب الذى لم يكن يوما مشاركآ فى امر الدولة مسؤولية الاوضاع الاقتصادية المتردية مدعين ان سببها تكاسله عن العمل -رغم عدم توفيرهم للوظائف- وعزوفه عن العمل الحر-رغم اثقالهم التى تلقى على ظهر كل تاجر- واخيرا - وليس اخرا- ابتعاده عن الله ! فى اقرار ضمنى منهم بانهم ابتلاء من الله !

مما لا يمكن اغفاله اليوم ان الحكومة السودانية تمهد وتكرس لدولة الفئة الواحدة .. فالامر عندها ان الشعب طبقتين .. عامة يتحملون سوء المعيشة وضنكها بينما يتفاخر النظام واهله بالتعايش مع العقوبات الاقتصادية رغم عدم مساسها بهم ، عامة يتجرعون مر الاصلاحات الاقتصادية بينما يذكر النظام واهله بجدواها رغم عدم اقترابها من مخصصاتهم.. عامة يتحملون اعباء الحرب فى دارفور والجنوب بينما يحشد النظام واهله لها بالتراقص على انغام الوطنية والدين ..

الشعب الذى يقوم بكل العمل، يتحمل كل الاعباء ولا يحصل من قادته الذين لا قاسموه هذا ولا ذاك الا النكران وسلب الحقوق .. الشعب الذى هجر حق الاستقرار والحياة الرغدة من اجل البقاء على ارض الوطن، او الذى هاجر محملا بامال العودة وتطلعات انصلاح الحال .. ولم يجد من اهل النظام الا وصفه بعدم الاهلية وشذوذ الافق وانعدام الطموح .. شعب هكذا يستحق ان يقرر مصيرة ويختار من يمثله فى الحكم ، رغب النظام واهله او رفضوا !

نظرة على الثورة وجدواها

الثورة فى السودان - ان تحققت- يجب ان تختلف عن كل ثورة قد سبقتها ، ف الامر هنا اكبر كثير من تحرك شعبى لانتزاع نظام الحكم الحالى واستبداله باخر .. حينها تنتهى الثورة ماتحقق للثورة بنهاية النظام الذى يليها ، ولا تكون بالتالى لها اهمية تذكر .. كما ستدور البلاد فى حلقة من الفساد والثورة يتلو كلاهما الاخر .. مما يتناقض واهدافها ببناء دولة مستقرة بعيدة عن الاضطرابات السياسية والامنية ..

كما ان الكثير من الناس يرى ان الحال فى السودان-وان ساء- فانه لايقارن بحالة فقدان الامن والاستقرار التى قد تسببها الثورة او الاثمان الغالية التى تدفعها الشعوب ثمنا لهذا النوع من التحرك الشعبى مستشهدين بعدة امثلة ضربها الربيع العربى المنقضى بكل ماحملته من قسوة وفوضى .. هذا الكلام - وان صح فى مجمله- فانه لا يبرر حالة الخمول الشعبى والامتناع عن المطالبة بابسط الحقوق والواجبات التى وصل اليها الشعب .. كما لا يبرر الخوف من الموت وانقضاء الاجل امتناع الشخص عن القيام باى نشاط يتطلب منه مفارقة مرقده .. فالحياة بمجملها هى سلسلة من المجازفات نقضيها -وان كنا نخاف الاجل- بلا توجس من ملاقاته كل صباح ، ومن دون ان يشكل ذالك هاجسا يمنعنا ومباشرة ماتبقى لنا من ايام !

قد يبدى احدهم تشكيكا فى جدوى الامر لمجرد جهلنا بشخصية من سيمسك بالسلطة ويقود البلاد بعهد مابعد الثورة .. وهنا اود ان اطرح ان الامر لا يجب بكل حال ان يمس النظام الحاكم فقط ، فالفساد السائد الان طال المشهد السياسى كله ولطخ ببصماته كل من ادعى المعارضة واظهرها كذبا او استخدما استنفاعا لنفسه ولحزبه، فهم بذلك مشتركين كما النظام بدحرجة البلاد الى وضعها الحالى .. كما يحسب عليهم سعيهم المطلق للسلطة واستعدادهم للتضحية بكل

مايمكن التضحية به فى سبيل بلوغها وافتقادهم لفكر او هوية يمكن ان يميز احدهم عن الاخر.. ما سبق يضعهم فى نفس الخانة لتشابه الغاية وانعدام الفروقات !

كما ان الشعب قد سئمهم وافكارهم العتيقة وعجزهم السياسى ، واشتراكهم -كما النظام- بسياسة التحالفات المؤقتة ولعبة المصالح .. فهم وان اختلفوا فى الاسماء لا يمثلون اى افكار سياسية واضحة او مواقف ثابتة غير تلك التى يظهرونها اتباعا للمصالح .. فهم و رغم تحالفهم مع النظام اليوم بمشاركتهم فى مسرحيات الحوار الوطنى والانتخابات وايهام العالم بوجود عملية سياسية فاعلة فى السودان .. سيحاولون القفز فى قطار الاحداث غدا لتسييس الثورة والتنافس على الظهور بصفة القائد فيها رغبة منهم فى استغلالها لتحقيق اهدافهم بانشاء نظام مماثل للحالى مع اختلاف الاسماء فقط ، وابعادا للثورة عن هدفها بتغيير نظام الحكم فى البلاد بشكل جوهرى بدلا من تغيير مراكز اللاعبين فيه !

السطور اعلاه تطرح ان المعارضة -وان ظهروا فى صف الثورة- فانهم اخطر عليها من النظام وان الشعب ان اراد ان يكون لتحركه جدوى فيجب عليه ابعادهم وتخليص ثورته من الارتباط بالاسماء وتمكين قيامها فقط لتحقيق الاهداف المنشودة منها .. اهداف تتمثل فى الاتى -مع عدم الحصر لعدم الالمام- :

- تحقيق نظام سياسى تنفصل فية السلطات الثلاثة عن بعضها انفصالا تاما ، فيتفرغ كل منها لعمله بدون تضارب .. مع الاشتراك فى هدف صيانة وحماية الدستور من اى تعديل لا يستوفى الشروط اللازمة ..
- كتابة دستور يكفل للشعب كافة الحريات الدينية والفكرية مما يحفظ حقوق مسلمى الدولة (الاغلبية الساحقة) من دون التاثير على حريات الاقليات ، ويقصى كل التقسيمات العرقية ..

- انشاء برلمان يقوم بدور المراقب والمحاسب ضامنا تداول السلطة فى الاطار القانونى حسب الفترات التى يحددها الدستور..
- محاولة الابتعاد عن الاحزاب والتحزب .. او التوجه نحو نظام الحزبين يمثل كلاهما مالا يمثل الاخر للحفاظ على شكل المعارضة الضرورية والمشاركة بشكل حقيقى فى حكم البلاد ..
-

ان الناظر للسودان اليوم لا يمكنه الا ابداء تعجبه من حال البلد واستنكار تناقضها وحقيقة ان السودان من البلاد التى انعم الله عليها بكثير من المقومات التى افتقر اليها كثير من دول الجوار مما يوفر لنا دفعة طبيعية وافضلية مجانية فى سباق التنمية .. فالنيل الذى يشق البلاد يوفر لنا الماء النقى فضلا عن اسهامه فى مجالات الطاقة، الزراعة والسياحة .. مع العلم بان كل ماسبق ذكره يشهد تدهورا شديدا فى سودان اليوم .. فتيار الماء والكهرباء ينافس كلاهما الاخر فى الضعف ، وقطاعنا الزراعى يشهد عليه سوق اليوم باسعاره المرتفعة وعجز الدولة عن تغطية احتياجات المواطن الغذائية فى اطار التصنيع المحلى لاجئين الى الاستيراد غير المبرر .. فلا ينافس القطاعات المذكورة اعلاه رداءة الا قطاع السياحة الذى انحصر فى بعض المحاولات الفردية الضعيفة فى ظل بنية تحتية متهالكة !

كما ان اراضى البلاد الزراعية الشاسعه وتوفر مقومات الزراعة طبيعيا اضافة الى توفر ضلع المعادلة الثالث متمثلا فى وجود الطاقة البشرية المؤهلة يجعل من قطاع الزراعة -ثم التصنيع الغذائى- استثمارا مضمونا وسهلا ينبغى تشجيعه والاهتمام به .. خلافا لما يحدث اليوم من تهميش ومحاربة حولت سلة بلاد العالم الى بلد جائع يستنجد بالمعونات من كل مكان ..

نقاط الختام

الاكيد ان ماوصلت اليه البلاد من حال يدعو للتغيير وان اختلفنا على اشكاله .. واننا ان نحن اخترنا اسقاط نظامهم فلن يكون لهم فى الامر يد لزخر التاريخ بالامثلة والدروس التى تؤكد ان مواجهة الشعب للحكومة لايمك ان تنتهى الا لصالح الشعب، وان الحاكم وان تمادى فلا يملك الا ان يسقط معه فى سقوطه البعض من مقومات الدولة وان يريق دماء شعبه .. لزم التنبيه بان مايصاحب الثورة من اثارة للشغب والفوضى يدعو لتجنبها او تقنينها، فالتظاهر مثلا- وان كان احد اكثر ادوات الثورة تاثيرا- ليس هو الطريق الوحيد للاحتجاج، فالاضراب والاعتصام المدنيين يمثلان طرق اقل احتكاكا باجهزة الامن ..

مما استخلصه الناس من تجارب الربيع العربى بخيرها وشرها ان الدول تلك هوت فى حفرة الشغب وعدم الاستقرار بسبب ادمان شعوبها على التظاهر ، وبسبب تشعبهم ولجوئهم للعنف فى بعض الاحيان .. فالثورة بشقها الاول تنتهى باسقاط النظام.. ولكن شقها الثانى يتمثل فى التفاف الناس حول تجربتهم لحمايتها من الاختراق والابتعاد عن طلب التغييرات السريعة وزعزعة الامن حفاظا على دولتهم ومكتسباتها الوليدة ..

يرجع فشل ثورات الربيع العربى بشكل كبير الى ان خروجهم كان للانتقام لا للاصلاح، وانهم تناسوا ان خروجهم على انظمتهم كان للتخلص من همجيتها،

لا لممارسية الهمجية زاتها عليها.. وتكوينهم لعداءات غير ضرورية مع اجهزة الامن والشرطة وتهميشهم لدورها بعد الثورة .. القيام بالواجب تجاه الوطن يتطلب العودة الى العمل والحياة المدنية بعد الثورة باسرع وقت مع استحضار ان البذور المزروعة حديثا تحتاج الوقت والرعاية، واستبعاد التغيير السريع والمتكرر لقطع الباب على فلول النظام السابق من استغلال الاوضاع والعودة الى المربع الاول..

*الافكار المدونة اعلاه لا تدعو باى شكل من الاشكال الى الفوضى او الشغب واراقة دماء الناس، كما انها لا تدعو بالضرورة للخروج على الحاكم وانتزاع كرسى الحكم بقدر ماتحث الناس على استرجاع حقهم فى التعبير والمشاركة فى القرارات السيادية بالبلاد ومحاولة اصلاح ما دمر خلال العقود الماضية .وان كان السبيل الوحيد الى ذالك يتضمن ازاحة النظام الحاكم ..